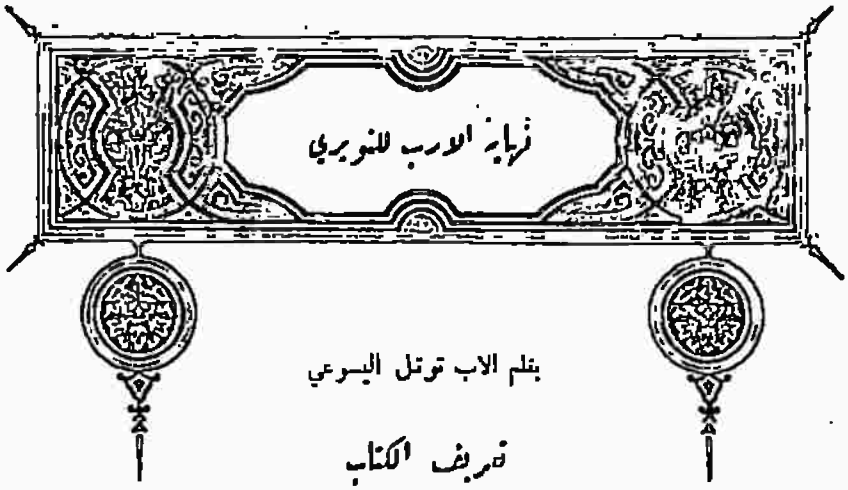

بقلم الاب توتل اليسوعي

تعريف الكتاب

جاء في كشف الظنون للحاج خليفة ، طبعة فلوغل ، عدد ١٤٠٦٩ :

« غاية الارب في فنون الادب تأريخ كبير في ثلاثين مجلدًا ، لشهاب الدين احمد بن عبد الوهّاب النويري الكندي ، المتوفى سنة ٧٣٢ . الفه في زمن الملك ناصر الدين محمّد بن قلاون . اوله : « الحمد لله رافع السماء وفاتق رتقها ومنشىء السحاب ومؤلف ودقها الخ » قال : وما اوردت فيه الّا ما غلب على ظني ان النفوس تميل اليه . ورتّبه على خمسة فنون : ١ً) في السماء والآثار العلوية والارض والمعالم السفلية ويشتمل على خمسة اقسام — ٢ً) في الانسان وما يتعلّق به ويشتمل على خمسة اقسام — ٣ً) في الحيوان الصامت ويشتمل على خمسة اقسام — ٤ً) في النبات ويشتمل على اربعة اقسام وذيّله بقسم نفيس في انواع الطب — ٥ً) في التأريخ ويشتمل على خمسة اقسام . »

ومرتبة الكتاب في فهارس الكتب العربية بين الموسوعات ، لان صاحبه توسع فيه لذكر كلّ ما خطر على باله من المعارف العامة في القرون الوسطى . وان يكن للنويري انداد يزاحمونه في هذا المضمار كالعمري († ١٣٤٨م ٧٤٨هـ) واضع مسالك الابصار في ممالك الامصار ، والقلقشندي († ١٤١٨م ٨٢١هـ) مؤلف كتاب صبح الاعشى في صناعة الانشاء ، فله عليهم فضل السابق في الزمان ، فاستفادوا من مؤلفاته واغترفوا من موارده .

قد ازدهرت الموسوعات في العصر المغولي ولم يحجم ادباؤه عن اخذ موادّ كتبهم اينما وجدوها صالحة لاغراضهم ، ولم يتكلّفوا في التأليف مؤونة لابتكار بل اجهدوا العين بالمطالعة واليراعة بالتحبير ، ونسخوا ما شاء الله ان

ينسخوه ، ودوّنوه في كتبهم . . ولا حرج عليهم من استعارة موادّ كتبهم على شرط ان يدلّوا الى مراجعها ، فلا يبخسوا حقوق من كان قبلهم من المؤلفين وعلى هـذه الخطة المحمودة سلك النويري ، فأدّى بنا الى نتيجتين رائعتين : احداهما ادبية والاخرى تاريخية وسوف يأتي الكلام عليهما بعد النظر في طبعة الكتاب ونسخه .

طبعة الكتاب

في السنة ١٩٢٣م (١٣٤٢هـ) طبعت دار الكتب المصرية السفر الاول من هذا الكتاب الجليل ، ومن ثم نشرت ستةٌ من اسفاره ، وها ان السفر السابع قد ظهر اخيراً وأُهدي الينا ، وقد صححه السيد احمد الزين ، بمساعدة الاستاذ محمد اسعد بك برادة ، مدير دار الكتب المصرية ، والاستاذ محمد البيلاوي . فضبطت اعلامه ، وفُسّر غريبه ، وكُشف عن غوامض مخطوطه ومعانيه بشروحات فكّت مشاكله ، وزادت فوائده . والكتاب مطبوع على ورق صقيل بغاية الاتقان الفني ، الّا بعض الاغلاط المطبعية التي لا يسهو عنها القارئ اللبيب فيصلحها بلمحة بصر . وان عملاً كهذا لا تقوم به الا الدوائر الواسعة والشركات الكبيرة مَن لها ما لدار الكتب المصرية مِن رجال ومال . وهذه الطبعة تحفة العين وملاذ الذاكرة يهتدي فيها القارئ الى غرضه لاول وهلة ، ويقتبس منها مراده من غير عناء ، فيتيسر من ثم الاشارة الى المآخذ بالصفحة والسطر ؛ واعدادُ الاسطر مرقومةٌ خمسةً خمسةً في الهامش ، ورتب صحائف المخطوط موضوعةٌ في حلقة ، واحرف المتن مشكلة بين كبير وصغير ومعتدل ، وعلاماتُ الوقوف تتخلل الاسطر ، والالفاظُ مضبوطةٌ بالاشكال الكافية لازالة مبهمات المعاني . واننا وددنا لو أُشير في آيات القرآن الى مآخذها ، ونودّ كثيراً ان يوضع في نهاية كتاب النويري كله فهرس عام ليس فقط لاعلامه ، ولكن لموادّه ايضاً ؛ وليس الامر بعيد المنال لان الفهارس الموجودة في صدر كل سفر من الاسفار سوف تساعد كثيراً على القيام السريع بذلك العمل الضروري . فانه يزيد قيمة الكتاب اضعافاً بتسهيل مراجعته .

نسخ الكتاب

لكتاب نهاية الارب نسخ شتى دلّ عليها بروكلمان في تاريخ الاداب العربية (٢: ١٤٠) . منها في برلين ، وڤينا ، وباريس ، ولندن ، ومصر ، والاستانة. وليست نسخة واحدة منها موجودةً بكاملها على ما يظهر من مطالعة وصف مخطوطات النويري في فهارس مكاتب المدن المذكورة.

قال السيد احمد الزين في مقدمة السفر السابع :

« وقد بذلنا وسعنا ، وغاية جهدنا ، في سبيل اظهاره للقراء سليماً من التحريف والتصحيف ، اللذين ملئت بهما اصوله التي بين ايدينا ، وهي نسخة واحدة ، مأخوذة بالتصوير الشمسي محفوظة بدار الكتب المصرية رقم ٢٥٢٠ — « تاريخ ».»

وتمنينا لو افادنا حضرة الناشر عن الاصل الذي اخذت عنه النسخة الوحيدة بالتصوير ، ولو عهد الى احد الادباء في النظر في اجزاء الكتاب المحفوظة في اوربة لعلّ بينها جزءاً تخالف نسخته الجزء الذي اخذ الناشر بطبعه. فان خزانة المكتبة الوطنية في باريس تحوي ، رقم ١٥٧٧[١٤] ، اجزاء مخطوط للنويري فيه وثائق عدة ، منها رسالة ذي الوزارتين ابي الوليد بن زيدون على لسان ولّادة بنت محمد بن عبد الرحمن الناصري ، والرسالة المنسوبة الى ابي بكر ، منه الى علي بن ابي طالب وغير ذلك ممّا لا تقصر ذراع دار الكتب المصرية عن استنساخه او تصويره ، وممّا كان يوسعها ان تستفيد منه عند طبع السفر السابع. على ان الناشر عمد الى المؤانات المشتركة موادّها بينها وبين النويري ، لتصحيح هذا السفر ، وصدر الكتاب بلائحتها . وقد توفق الى بلوغ المرام ، لكنه على ما بذله من غيرة محمودة في التصليح لم ينج من نقد الناقدين وهو ذا الاستاذ المغربي في دمشق قد حرر ١٤ صحيفةً من مجلة المجمع العلمي العربي (تموز ١٩٢٩) مبتغياً تصحيح الجزء السابع من نهاية الارب.

تحليل الكتاب

هو مطوّل في المعاني والبيان والخطابة ، له قيمته الاثرية في تاريخ التدريس ، لكنه قليل النفع للمدارس.

ليس المقام مقام ذمّ طرائق التعليم البيانية الجافة العقيمة المكثرة من نصّ القواعد ، القاصرة على تدريس اللغة بمفرداتها ومرادفاتها وعلى تهذيب الذاكرة دون تنبيه البصيرة الى التمعن والانتاج بالكشف على الاشياء في عللها وتفسيرها مع مراعاة اتصالها بالاشخاص والامكنة وسائر الظروف . وربما اخذ ابناء عصرنا على النويري اسرافه في تمديد اساليب البيان واكثاره من تشعيبها حتى انافت على العشرات . فان العقل يتيه والذهن يشرد بين ما وضعه من الفصول : في الحقيقة ، والمجاز ، والاستعارة واقسامها ، والكناية ، والتعريض ؛ الى غير ذلك من فصول التجنيس : كالمستوفى التام ، والمختلف ، والمذيّل ، والمركب وانواعه ، والمزدوج ، واجناس التجنيس العديدة ، الى غيرها من فصول الطباق ، والمقابلة ، والسجع ، والترصيع ، والمتوازي ، والمطرّف ، والمتوازن وغير ذلك مما توزعت مادة فهارسه على اربع صحائف من الكتاب ونيف . اما اسلوب التأليف فيكاد لا يتغير على اختلاف مواضيع المقال ، لان النويري اذا تناول البحث في شيء ما جمع كل ما ورد على خاطره مما يناسب ذلك الشيء واستشهد بسه مبتدئاً بالآيات القرآنية ، ثم بنصوص الحديث ، ثم بالامثال والاشعار والاقوال الرائعة . وربما نظم هذه المواد في سلك واهٍ عاجز عن الربط بينها رباطاً منطقياً .

فيقرأ المطالع الصحائف ثم يعود الى نفسه ويحاسبها عما قرأت ، فيرى انه لم ينتفع من القراءة كثيراً لان المؤلف لم يأت فيها بالكلام على العلل .

قال النويري في القلم : (ص ٢٠)

قال الحكماء : القلم احد اللسانين ، وهو المخاطب للعيون بسرّ القلوب . وقالوا : عقول الرجال تحت ألسنة اقلامها . بنو الاقلام يصوب غيث الحكمة . القلم صائغ الكلام ، يُفرغ ما يجمعه القلب ، ويصوغ ما يسبكه اللُّب .

وقال جعفر بن يحيى : لم أرَ باكياً أحسن تبسماً من القلم .

وقال المامون : قُه درّ القلم كيف يحوك وشي المملكة !

وقال ثمامة بن أشرس : ما أثّرته الاقلامُ ، لم تطمع في درسه الايام .

بالاقلام تُدبّرُ الاقاليمُ . كتاب المرء عُنوان عقله ، ولسان فضله . عقل الكاتب في قلمه

وقال ابن المعتزّ : القلم مُجهّزٌ لجيوش الكلام ، يخدم الارادة كانه يقبّل بساط سلطان ، او ينفّض نُوّار بستان . وقال . . .

وعلى هذا النمط يسير بنا النويري سحابة ١٢ صفحة . وهو كالنحلة تحوم حول الخلايا ولا تدخلها . فانه يعني بالقلم تارة اليراعة للتسطير ، وطوراً الريشة التي تُصوّر بها الصور على الاقمشة ، وتارة خُلق الكاتب ، وطوراً ارادته . . . وقد يتاح للقارئ ان يكشف على هذه المعاني في النصّ الذي ذكرناه ومثلها غيرها عديد فيما لم نذكره . وكنا نكتفي من ذلك بالقليل لو اظهره النويري على علاته وعلمنا : كيف ومتى وباي وسائل ، وعلى اي مثال « يحوك القلم وشي الممالك » ولم يكن قاصراً عن الاخذ بموضوعه عن طول باع هو الذي عهد اليه المماليك بنظارة الجيش في طرابلس في ايام حروب كان فيها نظام الجيش مقتضياً من الحكام غاية الذكاء والفطنة .

ولكن كم من طرفة ظريفة تروق قراءتها في هذه الموسوعة الكبيرة . قد انزل في يومنا « القلم المدّاد » اليراعة عن عزها ، وخلع الدواة عن عرشها ، واستهوت الالة « الكتابة » انامل الكتاب وصرفت همّ الكثيرين عن شأن الخط ، ومع ذلك فلا بأس من ان نراجع مع قراءة النويري ذكر عهد غير بعيد عنا كان فيه الاستاذ يلف ساقاً على ساق ويُحكم جلوسه ليحسن الكتابة طبقاً لاصولها وآدابها .

قال النويري : (ص ١٢)

« من صفة الكاتب اعتدال القامة ، وصغر الهامة وخفة اللهازم ، وكثافة اللحية ، وصدق الحسّ ، ولطف المذهب ، وحلاوة الشمائل وخطف الاشارة ، وملاحة الزي . وقال : من كمال آلة الكاتب أن يكون بهيّ الملبس ، نظيف المجلس ، ظاهر المروءة ، عطر الرائحة ، دقيق الذهن ، صادق الحسّ حسن البيان ، رقيق حواشي اللسان ، حلو الاشارة ، مليح الاستعارة ، لطيف المسلك مستفره المركب ، ولا يكون مع ذلك فضفاض الجثة ، متفاوت الاجزاء ،

طويل اللحيـة ضليع الهامة ؛ فانهم زعموا ان هذه الصورة لا يليق بصاحبهـا الذكاء والفطنة.»

هـذا والحدة على الراوي فعفواً اذاً ممن كان قصير القامة ، من كتّابنا ، كبير الهامة ، او قضت عليه ساعات التأليف والتحرير بان تتفضفض جثته من كثرة الجلوس وقلة الحركة...

على ان الكلام في القلم يبحث ليس فقط عن صفات الكاتب الماديـة ولكن عما يحتاج اليه من المعارف العمومية . وهذا الفصل مفيد للوقوف على حركة الافكار ايام كتب النويري وللمقـابلة بين برامج التعليم الموضوعـة في المعاهد الاسلامية العلمية ، وبرامج التعليم العصري . لم يهتم العرب لدرس لغة من لغات البلاد التي فتحوها كالسريانية ولهجاتها والفارسية او القبطية وغيرها ، وتركوا لاهل هذه البلاد على العموم العناية ببعض العلوم والفنون ولم يكترثوا لشرع غير الشرع الاسلامي ، ولم يعنوا في تدوين تواريخ البلاد وجغرافيتهـا في الغالب الا بما يساعد على حشد الاموال والعساكر ، وحصروا جلّ مجهوداتهم بدرس اللغة العربية والاخذ بها من اطرافها المتصلة بعلم القرآن والحديث والفقه وهذه العلوم هي الدستور المؤسسة عليه الجامعة العربية.. جاء في نهاية الارب على ما يحتاج الكاتب الى معرفته من الامور الكلية (٢٧) :

اول ما يبدا بـه من ذلك حفظ القرآن ، ومداومة قراءته ، وملازمـة درسه ، وتدبر معانيه حتى لا يزال مصوراً في فكر الكاتب دائراً على لسانه بمثلًا في قلبه ، ذاكراً له في كل مـا يرد عليه من الوقائع التي يحتـاج الى الاستشهاد به فيها ويفتقر الى اقامة الادلة القاطعة به عليها ؛ وكفى بذلك معيناً له في قصده ، ومغنياً له من غيره.

واثبت النويري قضيته هـذه محتجاً بالآية : «ما فرطنا في الكتاب من شيء» وبغيرها وباقوال الصحابة واخبار الخلفاء وغيرهم من كبار المسلمين . ثم قال (ص ٣٠) :

«يتلو ذلك الاستكثار من حفـظ الاحاديث النبوية وخصوصاً في السير والمغازي والاحكام والنظر في معانيها وغريبها وفصيحها وفقه ما لا بـد من

معرفته من احكامها ليحتج بها في مكان الحجة ، ويستدل بموضع الدليل . . .

ويتلو ذلك قراءة ما يتفق من كتب النحو التي يحصل بها المقصود من معرفة العربية . . . ويتعلق بذلك قراءة ما يتهيأ من مختصرات اللغة . . . وحفظ خطب البلغاء من الصحابة وغيرهم ومخاطباتهم ومحاوراتهم ومراجعاتهم ومكاتباتهم وما ادعاه كل منهم لنفسه او لقومه وما نقضه عليه خصمه . . . ثم النظر في ايام العرب ووقائعهم وحروبهم ، وتسمية الايام التي كانت بينهم ، ومعرفة يوم كل قبيلة على الاخرى ، وما جرى بينهم في ذلك من الاشعار والمنافسات . . . ثم النظر في التواريخ ومعرفة اخبار الدول . . . فان الكاتب قد يُضطر الى السؤال عن احوال من السلف او يرد عليه في كتاب ذكر واقعة بعينها او يحتج عليه بصورة قديمة فلا يعرف حقيقتها عن مجازها . . . ثم حفظ اشعار العرب ومطالعة شروحها واستكشاف غوامضها والتوفر على ما اختاره العلماء بها منها ، كالحماسة ، والمفضليات ، والاصمعيات ، وديوان الهذليين ، وما اشبه ذلك .

وكذلك حفظ جانب جيد من شعر المحدثين كابي تمام ، ومسلم بن الوليد ، والبحتري ، وابن الرومي ، والمتنبي . . . وكذلك النظر في رسائل المتقدمين ، وكتب الامثال الواردة عن العرب ، كامثال الميداني ، والمفضل بن سلمة الضبي ، وحمزة الاصبهاني ، وغيرهم وامثال المحدثين الواردة في اشعارهم كابي العتاهية ، وابي تمام ، والمتنبي ، وامثال المولدين . . . والنظر في الاحكام السلطانية .

قال : « فهذه امور كلية لا بد للمترشح لهذه الصناعة من التصدي للاطلاع عليها والاكباب على مطالعتها . والاستكثار منها لينفق من تلك المواد ويسلك في الوصول الى صناعته تلك الجواد ، والا فليعلم انه في واد والكتابة في واد . »

هذه نبذ استخرجناها مثالاً يرشد القارئ الى اسلوب الكتاب ومحتوياته وليست فوائده التاريخية دون محاسنه الادبية رونقاً . ان الجزء الاخير من هذا السفر حافل بنماذج من الخطب والرسائل المعوّل عليها في معرفة التاريخ وربما روى النويري اثراً من تلك الآثار الرائعة ، وهو غير متيقن صحة نسبته الى

اصحابه ، فلم يغضّ النظر عن شكوك بعضهم بصحته فيه بل نبــه القارئ اليها . قال (ص ٢١٢) في الرسالة المنسوبة الى ابي بكر منه الى علي ومــا يتصل بها من كلام عمر بن الخطاب وجواب عليّ :

« هذه الرسالة قد اعتنى الناس بها واوردوها في المجاميــع ، ومنهم من افردها في جزء ، وقطع بانها من كلامهم رضى الله عنهم ، ومنهم من انكرها ونفاها عنهم ، وقال : انها موضوعة واختلف القائلون بوضعها فمنهم من زعم ان فضلاء الشيعة وضعوها ، وارادوا بذلك الاستناد الى ان عليًّا بن ابي طالب رضى الله عنه انما بايع ابا بكر الصديق بسبب ما تضمنته ؛ وهذا الاستناد ضعيف وحجة واهية والصحيح ان عليًّا بن ابي طالب رضي الله عنه بايع بيعــةً رضى باطنه فيها كظاهره والدليل على ذلك انه وطئ من السبي الذي سبي في خلافة ابي بكر واستولد منه محمد بن الحنفية ولا جواب لهم على هذا ؛ ومنهم من زعم ان فضلاء السنة وضعوها والله اعلم . »

وان تكن قيمة الرسالة الادبية التاريخيــة عظيمة فان ملاحظة النويري ليست دونها منزلةً لانها تفتح الباب للتنقيب وتؤدي الى الكشف عن غوامض التاريخ بالاسلوب العلمي ، فلا يرضى العاقل ان يصدق الّا ما كان مستندًا الى اساس متين . وان وقوع تلك الرسالة الشهيرة موقــع الشك في نظر النويري وامثال ذلك من اخبار تنازع في صحتها الاحزاب هي التي دفعت المحدثين ، في مصر خاصةً ، الى شكوك كثيرة وصارت حجةً لصاحب الكتاب « في الشعر الجاهلي » و « في الادب الجاهلي . »